حديث للشاعر
محمود درويش

لهم الليل والنهار لي !..

● نشرت صحيفة « زو هديرخ » الاسبوعية، الناطقة بلسان الحزب الشيوعي الاسرائيلي باللغة العبرية، حديثا صحفيا طويلا مع الشاعر محمود درويش ، في عددها الصادر في ١٩ – ١١ – ١٩٦٩ . كان الحديث اول لقاء مباشر بين محمود درويش والقارىء العبري ، وقد تناول عدة جوانب من حياة الشاعر وقضيته ، وخاصة ما يتعلق بالعلاقات العربية – اليهودية .

اجرى الحديث الصحفي المحرر في « زو هديرخ » يوسي الفازي ، ونشره بطريقة « مونولوج » . وفيما يلي ترجمة هذا الحديث كما نشرت في مجلة « الجديد » العربية التي تصدر في الارض المحتلة (حيفا)

تعرفت على محمود درويش ، لاول مرة ، عندما كان يلقي من شعره أمام الجمهور . آنئذ كان يلقي قصيدته التي تحولت ، في نظري،الى بطاقته الشخصية : « سجل : انا عربي » . لقد هز محمود النحيل جمهور المستمعين واثاره ، وحوله الى موجة عارمة تحطم السدود . اي تناقض بين الاثنين : القصيدة والمبدع !. لقد جاء التناقض من الكلمات التي خرجت من فم محمود . آنئذ اصبح محمود درويش شاعر الشعب العربي الفلسطيني . ترجمت قصائده الى اللغات : الفرنسية ، والانجليزية ، والروسية ، والايطالية ، والبلغارية . ولكنها لم تترجم الى اللغة العبرية . واصبحت مجموعاته الشعرية من اكثر الكتب مبيعا ، لا في اسرائيل فحسب ، بل في البلدان العربية ايضا .

قبل عدة ايام ، اطلق سراحه من سجنه الرابع . لماذا اعتقل وسجن ؟ ان محمود درويش وشعره شوكة في عيون السلطة . لقد قررت تقديم محمود درويش الى القارىء العبري بكلماته . ولذلك ، فاني انشر بصورة مونولوج ، الاشياء التي قالها في حوار ليلي جرى بيننا بعد اطلاق سراحه من السجن بثلاثة ايام .

هذا هو محمود درويش :

اذكر نفسي عندما كان عمري ست سنوات . كنت اقيم في قرية جميلة وهادئة ، هي قرية البروة الواقعة على هضبة خضراء ، ينبسط امامها سهل عكا . وكنت ابنا لاسرة متوسطة الحال عاشت من الزراعة .

عندما بلغت السابعة ، توقفت العاب الطفولة . واني اذكر كيف حدث ذلك .. اذكر ذلك تماما : في احدى ليالي الصيف ، التي اعتاد فيها القرويون ان يناموا على سطوح المنازل ، ايقظتني امي من نومي فجاة ، فوجدت نفسي مع مئات سكان القرية اعدو في الغابة . كان الرصاص يتطاير من على رؤوسنا ، ولم افهم شيئا مما يجري . بعد ليلة من التشرد والهروب وصلت مع احد اقاربي الضائعين في كل الجهات ، الى قرية غريبة ذات اطفال آخرين . تساءلت بسذاجة : اين انا ؟ وسمعت للمرة الاولى كلمة « لبنان » .

يخيل لي ان تلك الليلة وضعت حدا لطفولتي بمنتهى العنف . فالطفولة الخالية من المتاعب – انتهت . واحسست فجاة اني انتمي الى الكبار . توقفت مطالبي وفرضت عليّ المتاعب . منذ تلك الايام التي عشت فيها في لبنان لم انس ، ولن انسى الى الابد ، تعرفي على كلمة الوطن . فلاول مرة ، وبدون استعداد سابق ، كنت اقف في طابور طويل لاحصل على الغذاء الذي توزعه وكالة الغوث . كان الوجبة الرئيسية هي الجبنة الصفراء . وهنا استمعت ، لاول مرة ، الى كلمات جديدة فتحت امامي نافذة الى عالم جديد : الوطن ، الحرب ، الاخبار ، اللاجئون ، الجيش ، الحدود ، وبواسطة هذه الكلمات بدأت ادرس وافهم واعرف على عالم جديد ، على وضع جديد .. حرمني طفولتي .

بعد اكثر من سنة ، عشت خلالها حياة لاجيء ، ابلغوني ذات ليلة اننا سنعود غدا الى البيت . اذكر جيدا اني لم انم في تلك الليلة .. لم أنم من شدة الفرح . فالعودة الى البيت تعني – بالنسبة لي – نهاية الجبنة الصفراء ، نهاية تحرشات الاولاد اللبنانيين الذين كانوا يشتمونني بكلمة « لاجيء » المهينة .

.. وخرجت الى رحلة العودة . كان الظلام مخيما على كل شيء . وكنا ثلاثة : انا ، وعمي والدليل الذي كان يعرف مجاهل الدروب في الجبال وفي الوديان . اني اذكر الزحف على البطون لكي لا يرانا احد . وبعد رحلة مضنية ، وجدت نفسي في احدى القرى . ولكن ما اشد خيبة املي : لقد وصلنا الى قرية دير الاسد ، وهي ليست قريتي . لا بيتي هناك ولا زقاقي . سألت : متى نعود الى قريتنا .. الى منزلنا . ولم تكن الاجوبة مقنعة . ولم افهم شيئا .. لم افهم معنى ان تكون القرية مهدمة .. لم افهم .. معنى ان يكون عالمي الخاص قد انتهى الى غير رجعة . لم افهم لماذا هدموا هذا العالم .. ومن هم اولئك الذين هدموه !.

ورويدا رويدا اعتدت على حياة الكبار ، وقضايا الكبار . واتضح لي – بمنتهى خيبة الامل – اني لم اعد الى منبع الاحلام ، لم اعد الى زقاق الطفولة . كل ما في الامر هو ان اللاجيء قد استبدل عنوانه

بعنوان جديد . كنت لاجئا في لبنان ، وانا الان لاجيء في بلادي . والان ، عندما اتحدث اليك ، وانا في الثامنة والعشرين من العمر ، فانني قادر على تقويم تلك الفترة . اذا اجرينا مقارنة بين ان تكون لاجئا في المنفى وبين ان تكون لاجئا في الوطن ، وقد خبرت النوعين من اللجوء ، فاننا نجد ان اللجوء في الوطن اكثر وحشية . العذاب في المنفى ، والاشواق وانتظار يوم العودة الموعود – شيء له ما يبرره .. شيء طبيعي . ولكن ان تكون لاجئا في وطنك ، فلا مبرر لذلك ، ولا منطق فيه . وعندما نتقدم قليلا في السن نتخلص من الغصة ، ونشعر ان الوجود هنا اكثر تبريرا . عندها يتدخل عنصر التحدي ، وعامل الوعي والبحث عن حل . وقد عثرت على الحل في سن لاحقة ، عندما انتهى الصبا ، وادركت ان ثمة حاجة الى الانتماء ، لا الانتماء السلبي العادي ، بل الانتماء الفعال .. الانتماء الملموس والسياسي . ومن الطبيعي ، أن السياسة تقضي على الحساسية المفرطة وعلى التمسك المتواصل ببقايا الذكريات وبوسعي ان اقول الان ان وضعي الراهن اسهل . ولكن المواجهة النفسانية الداخلية تثور فيّ عندما اجلس لكتابة الشعر . عندها يجري الحوار بين احساس الفنان وبين الوعي السياسي . وانا اعتقد ان الفنان يجب ان يكون عاريا امام نفسه .

***

عندما عدت الى دير الاسد ، كنت في الصف الثاني . كان مدير المدرسة انسانا طيبا . وانا اذكر عندما كان يزور المدرسة مفتش وزارة المعارف ، كيف كان المدير يستدعيني ويخبئني في غرفة ضيقة . فقد كانت السلطات تعتبرني ((متسللا)) وكان المعلمون يرغبون في الدفاع عني . لقد اضاف ذلك الحادث كلمة اخرى الى قاموسي الخاص ، الى قاموس الحياة : كلمة ((متسلل)) . وكلما كانت الشرطة تأتي الى القرية، كانوا يخبئونني في خزانة او في احدى الزوايا ، لانه من المحظور عليّ ان اعيش هنا .. في وطني . لقد منعوني من الادلاء بهذا الاعتراف : ((كنت في لبنان)) . وعلموني القول اني كنت لدى احدى القبائل البدوية في الشمال . وهكذا فعلت لكي احصل على بطاقة الهوية الاسرائيلية . ولكني لا ازال – حتى اليوم – محروما من الجنسية في وطني !.

واعتبرت تلميذا متفوقا . كنت اكثر من مطالعة الادب العربي . وقلدت الشعر الجاهلي في محاولاتي الشعرية الاولى .

واليوم ، يبدو من المستهجن ان اكشف النقاب لاول مرة : اني كنت موهوبا آنئذ في الرسم . ربما كنت في ظروف وملابسات اخرى اتطور كرسام لا كشاعر . وقد تضحك عندما تعرف لماذا توقفت عن الرسم . السبب في منتهى البساطة : لم يملك والدي قدراً من المال يتيح له امكانية ان يشتري ما احتاجه من ادوات الرسم . لقد زودني بدفاتر الكتابة بشق النفس . آلمني ذلك كثيرا ، فبكيت وتوقفت عن الرسم . وعندها حاولت التعويض عن الرسم بكتابة الشعر . وكتابة الشعر لا تتطلب نفقات مالية !

كانت مواضيع محاولاتي الشعرية الاولى وهي مشاعر الطفولة . وكنت احاول الكتابة ، احيانا ، عن مواضيع ذات وزن ، كانت اكبر من طاقتي في تلك السن . شجعني المعلمون على الكتابة . ولا ازال حتى اليوم مدينا لبعضهم – ومن بينهم معلم شيوعي هو نمر مرقس – قاموا بتوجيهي وساعدوا خطواتي الاولى في الشعر .

***

لقد خلق لي شعري المتاعب منذ البداية . ودفعني الى الصدام مع الحكم العسكري . واذا اردت مثلا على ذلك : كنت طالبا في الصف الثامن عندما احتفلوا بمناسبة اقامة دولة اسرائيل . وقد نظموا مهرجانات كبيرة في القرى العربية باشتراك تلامذة المدارس في هذه المناسبة . طلب مني مدير المدرسة ان اشترك في مهرجان عقد في قرية دير الاسد . وعندها ، ولاول مرة في حياتي ، وقفت امام الميكروفون وبالبنطلون القصير ، وقرات قصيدة كانت صرخة من طفل عربي الى طفل يهودي . لا اذكر القصيدة ولكني اذكر فكرتها : يا صديقي ! بوسعك ان تلعب تحت الشمس كما تشاء . بوسعك ان تصنع العابا . ولكني لا استطيع . انا لا املك ما تملكه . لك بيت ، وليس لي بيت ، فانا لاجيء . لك اعياد وافراح ، وانا بلا عيد وفرح . ولماذا لا نلعب معا ؟!.

وفي اليوم التالي استدعيت الى مكتب الحاكم العسكري في قرية مجد الكروم . هددني وشتمني ، فاحترت . لم اعرف كيف ارد عليه . وعندما خرجت من مكتبه بكيت بمرارة لانه انهى تهديده بقوله : اذا استمررت في كتابة مثل هذه الاشعار فلن نسمح لابيك بالعمل في المحجر !. يؤلمني ان اذكر الان ان تهديدات ذلك الحاكم العسكري اثرت عليّ تأثيرا سلبيا . وبمنطق الصبي قلت لنفسي : سأحصل على القصاص . ولن اكتب . وبالمنطق ذاته عجزت عن فهم السبب الذي يجعل مثل تلك القصيدة تثير حاكما عسكريا . واسجل الان ان ذلك الحاكم العسكري كان اول يهودي اقابله واتحدث اليه ! لقد ضايقني سلوكه : اذا كان الامر كذلك ، فلماذا اتحدث الى الطفل اليهودي ؟ لقد تحول الحاكم العسكري الى رمز الشر الذي يؤذي العلاقات بين الشعبين . ومن الواضح ، الان فقط استطيع الاجابة على الاسئلة التي ضايقتني آنئذ .

***

ومن حسن حظي ، ظهرت في حياتي صورة اخرى مناقضة للحاكم العسكري . بعد ذلك الحادث ببضعة شهور ، انتقلت الى الدراسة في مدرسة كفر ياسيف الثانوية . هناك التقيت بشخصية يهودية اخرى تختلف تمام الاختلاف ، هي المعلمة شوشنه التي لا امل الحديث عنها . لم تكن معلمة . كانت اما . لقد انقذتني من جحيم الكراهية . كانت – بالنسبة لي – رمزا للخدمة المخلصة التي يقدمها يهودي طيب لشعبه. لقد علمتني شوشنه ان افهم التوراة كعمل ادبي ، وعلمتني دراسة بياليك بعيدا عن التحمس لانتمائه السياسي ، وانما لحرارته الشعرية. لم تحاول ان تعبئنا بسموم البرامج الدراسية الرسمية التي ترمي الى دفعنا للتنكر لتراثنا . لقد انقذتني شوشنه من الحقد الذي ملأني به الحاكم العسكري . لقد حطمت الجدران التي اقامها ذلك الحاكم .

***

قبل عدة اسابيع ، عقدنا – نحن محرري الصحف الشيوعية العربية – مؤتمرا صحفيا في حيفا . تصرف بعض الصحفيين بدون لياقة اذ استخدمت الكلمة اللينة ، وبدون فهم لمشاعرنا وقضايانا . وفي مجرى الحديث قلت لاحد الصحفيين ان صحيفة ((عل همشمار)) نشرت في ذلك الصباح خبرا بارزا عن الاحتفالات بمرور عشرين سنة على انشاء كيبوتس ((يسعور)) . جاء في الخبر ان الفرح بهذه المناسبة لم يكن له مثيل . وقلت للصحفي : يؤسفني ان اقول لك الحقيقة – انا افهم فرحك ولكنني عاجز عن مشاركتك فيه . لماذا ؟ لان هذا الفرح قائم على اطلالي . فان كيبوتس ((يسعور)) ومستوطنة ((احيهود)) مبنيان على انقاض قريتي .. على انقاض حارتي وبيتي . ذلك ينتمي الى الماضي ؟ ولكنه محفور في اعماقي !.

عندما عدت من لبنان ، حذرني اهلي من «خطورة» رغبتي في زيارة المكان الذي ولدت فيه وقضيت طفولتي ، فاذا الغي القبض عليّ هناك، ساطرد الى لبنان . وهكذا لم ازر المكان الا عام ١٩٦٣ . كانت زيارة سرية لان دخول تلك المنطقة ممنوع . ولم اجد من كل القرية الا مبنى الكنيسة الذي تحول الى اصطبل . ان ما رأيته في ذلك المكان المهجور يفسر لك لماذا كانت هذه هي زيارتي الاولى والاخيرة . فتشت عن مرتع طفولتي فلم اجد الا الاشواك ، لا منزل ولا شيء الا الشوك . لن اعود الى ذلك المكان . وكانت الزيارة بمثابة حج . قمت بتأدية هذه الفريضة مع مجموعة من الاصدقاء ، من ابناء القرية . خلدنا الى الصمت التام طيلة تلك الزيارة وبعدها . التقينا هناك براعي اغنام من اليمن يقيم في مستوطنة ((احيهود)) . قلت له : لقد اصبحنا ابناء قرية واحدة !. لم يفهم ما اعنيه ، ولم تكن بي رغبة في التفسير .

***

انا افهم سوء فهم ذلك الراعي .. الشاب البسيط . ولكن يشق عليّ ان افهم الاغلبية الساحقة من المثقفين اليهود المقيمين في اسرائيل . ويزيد من صعوبة فهمي كونهم شديدي الحساسية تجاه اي سوء يتعرض له أي مثقف يهودي في اية ناحية من انحاء المعمورة . ولكنهم لا يحاولون اجراء أي اتصال من الفهم مع زملائهم العرب في اسرائيل . اني اذكر مشاعر الاحراج التي داهمتني في اوروبا ، عندما سألني عدد كبير من ادباء العالم عن التأثير المتبادل بين الشعر العربي والشعر العبري في اسرائيل . واولئك الادباء الذين سمعوا عن الملاحقات التي يتعرض لها الشاعر العربي في اسرائيل ، كانوا معنيين بمعرفة الجبهة المشتركة بين هؤلاء المضطهدين وبين اكثرية زملائهم العبريين . اجد لزاما عليّ ان اؤكد هنا اني واجهت ـ بهذه الاسئلة ـ قضية جادة جديرة بالاهتمام والملاحقة ، لم تطرح في اسرائيل من قبل . وكان جوابي : « لا شيء » . ويؤسفني ان امثل الاديب المناضل مردخاي ابي شاؤول هم قلائل في اسرائيل . وبوحي من هذه الاسئلة كتبت افتتاحية في مجلة « الجديد » طرحت فيها هذه القضية التي تتطلب الاجابة . اريد ان اؤمن باننا سنحصل على الاجابة . انني لا اطمح الى التماثل والفهم التام من جانب زملائنا الشعراء والادباء اليهود . انني اعود ـ بكل بساطة ـ الى التعارف . ادعو الى آذان صاغية ، ولا ادعو الى الموافقة المسبقة . من المخجل اننا لا نعرف شيئا عن بعضنا البعض. ان ما جرى في مؤتمر للكتاب عقد مؤخرا في فرنسا ، بين الوفد الاسرائيلي الرسمي (حاييم غوري واهرون ميفد) وبين كاتب لبناني قام بتوزيع بيان احتجاج على ملاحقة الشعراء العرب في اسرائيل ، هو بمثابة دعوة جديدة وملحة الى النظر بجدية الى قضية العلاقات بين حملة الاقلام العبرية والعربية في اسرائيل . واني احتج هنا على الحلول السهلة التي يقترحها قسم من الصحافة الاسرائيلية باختراعها اسماء غير معروفة وعديمة القيمة لتمثل بها حركة الادب العربي في اسرائيل . واريد ان احتج ايضا على ظاهرة اخرى هي الطريقة التي يقدمون بها الممثلين الحقيقيين للشعر العربي بصورة « حملة شعارات» و « معادين لليهود » !

ان الجهل التام بالادب العربي في اسرائيل ينبع من اعتبارات وحسابات سياسية بحتة ، مع انه ليس من المقبول الحديث عن السياسة والشعر في سياق واحد !!. ان اولئك الذين يسيطرون على ادوات الدعاية والنشر لا يريدون ان يقدموا للقارىء العبري حقيقة الادب العربي في البلاد . انهم يخافون مضمون هذا الادب . ويدركون ان وصول هذا الادب الى الجمهور اليهودي سيحطم حواجز . فالادب العربي هنا هو ادب احتجاج على وضع غير عادل ، كأي ادب احتجاج آخر في العالم . واذا كان من المتاح لي ان استعير مثلا من أدب الاحتجاج العالمي المعاصر ، فسأذكر اسم « جيمس بلودوين » الزنجي الامريكي ، صاحب الكتاب المثير « لا احد يعرف اسمي » ، واعرف ان رنين هذا الكتاب ليس عذبا للاذن الاسرائيلية بسبب تشابه الواقعين ، ولكن القلائل .. القلائل جدا في المجتمع الاسرائيلي هم الذين يعرفون اسماءنا وقضايانا . بيد اني اريد ان افترض وجود شعراء مبدعين ، مثل يهودا عميحاي ودالية ريبكوفتش ، ذوي استعداد اولي لفهم امثالنا . عندما التقي بالحيرة النفسية لدى هذين الشاعرين وغيرهما، احصل على حفنة من الامل ، وفي انه لا يزال فيهذه البلاد من يحافظ على حاسة فهم الآخرين !.

وينبغي عليّ ان اضيف انه بالاضافة الى كل المتاعب والعقبات ، هناك عقبة اللغة . اني افهم لماذا يحصل عدد كبير من الادباء اليهود على انطباع خاطيء عنا . انهم لا يعرفوننا . لا يقرأوننا بلغتنا الاصلية . وبهذا الصدد اجد نفسي عاجزا !. ولكن ، لماذا لا نتعارف على الاقل ؟ لا اطلب منهم ان يحكموا على انتاجنا ، فالشرط الاول لهذا الحكم هو المعرفة ، وهم لا يعرفون . هذه القضية تشغل بالي . وانا لا امل تكرار دعوة الادباء اليهود الى التعرف على زملائهم العرب . وفي هذه المناسبة ، بودي ان الفت نظر القارىء العبري ـ وليس بدافع السخرية ـ الى حقيقة ان الكثيرين في اسرائيل يعرفون اسم الشاعرة فدوى طوقان من نابلس الواقعة تحت الاحتلال الاسرائيلي منذ عامين فقط، بينما لا يعرفون اسماء الشعراء العرب الذين يعيشون تحت الحكم الاسرائيلي منذ ما يزيد عن ٢١ سنة ! ان هذا السؤال موجع وخبيث . اعترف بذلك . ولكن حاولوا ان تفهموني . وانا لا اعاتب الادباء اليهود المتعصبين ، أني اعاتب الادباء الذين يريدون ان نسميهم ادباء تقدميين. من هؤلاء اطلب : تعالوا نتعارف ونتناقش !.

***

بدأ تعرفي على الادب الثوري والشيوعي ، خلال دراستي الثانوية. قرأت « الاتحاد » و« الجديد » وغوركي ولينين . تحسست طريقي وظهرت نقطة ضوء في حياتي . في سنوات دراستي الاخيرة شغلتني كثيرا الحيرة الادبية . كيف اعبر عن نفسي . انا شاب انتمي الى قومية معينة ، ولي قضايا معينة . وفي الوقت ذاته اعيش في دولة اسرائيل . اريد العثور على حل لهذا السؤال : « هل من حكم القدر وجود تناقض بين هذين الانتمائين ؟ » . لا اخفي عليك ان هذا السؤال يتراءى ، امام النظرة السطحية ، بالغ السهولة . ولكنه سؤال شاق وخاصة للشباب . وانا لم اعثر على الجواب بسهولة . حللته على النحو التالي : « لا تناقض جوهري بين الشعوب ، اذا قامت العلاقات بين الشعوب على اساس المساواة » . انت مدعو لان تكون بطلا ، من ناحية نفسية ، لكي تتغلب على هذا السؤال في ظروف بلادنا . وانا لا ادعي البطولة النفسية اذا قلت لك اني وجدت الحل ، فالتناقض ليس قدرا على الرغم من اننا يجب ان نفهم اولئك الذين يعتبرونه كذلك.

اني احاول ، رغم الآلام والعذاب الناجمة عن الظلم ، المحافظة على اهم عناصر الانسان : ان اكون انسانا ، وان انجو من التعصب القومي . لا اقول ذلك نفاقا ، ولا لاني اتحدث اليك ، وانى القارىء العبري بواسطتك . لاتحدث بسذاجة : انا لا اعادي اليهود . واقول لك بادراك تام ان الانسان ـ مهما كان لونه ومهما كانت قوميته ـ هو كنزي .

واريد ان اتباهى بانسانيتي ، بانني اول شاعر عربي عرض جنديا اسرائيليا ، حتى بعد حرب حزيران ، بجوهره الانساني . كيف حدث ذلك ؟ بعد حرب حزيران التي أعادت قتلي حافظتعلى انتمائي الانساني. كتبت قصيدة « جندي يحلم بالزنابق البيضاء » . والقصيدة هي حوار مع جندي اسرائيلي عاد من الحرب خائبا لانه فقد انتماءه الانساني . شربت معه اربع كؤوس خلال حديثنا عن الحرب وعن حبه الاول وعن همومه اليومية ، بدون ظل من الكراهية القومية . لقد وضع الجندي قلبه امامي ، وانا استقبله كصديق قبل الحرب . هاجمني اديب سوري بشدة ، على هذه القصيدة . اتهمني بانني اضلل الرأي العام العربي والعالمي . وقال ان هذا الجندي موهوم . ولكنني سررت عندما قرأت كتاب احد النقاد الشباب البارزين هو رجاء النقاش . في كتابه عنى رد على الكاتب السوري بان الصراع في المنطقة ليس مع اليهود كبشر ،

سقوط الأقنعة ..

ديوان جديد

لشاعر المقاومة في الارض المحتلة

سميح القاسم

صدر حديثا : ٢٠٠ ق.ل

ولكنه صراع بين العرب والصهيونية . وقال رجاء النقاش أن العالم لم يفهم عداء العرب لاسرائيل ، ولمح الى أن العقبة بين تفاهم العرب واليهود هي الصهيونية والاستعمار . وانا استغرب لماذا لا يستخلص الضمير اليهودي النتائج الحقيقية من تأثير الادب العربي الانساني في اسرائيل . أننا نشهد ، في الاونة الاخيرة ، ملاحقة ايجابية من العالم العربي للشعر العربي في اسرائيل . صحيح ، ان اغلبية الاسرائيليين تنظر الى هذه الحقيقة بريبة وترى فيها دليلا على موقف العرب السلبي. ولكنني انظر الى الامر من زاوية اخرى . ان هذا الاهتمام علامة على التغييرات الايجابية الجارية في النفسية العربية . العالم العربي يرى في الشعر العربي في اسرائيل رمزا للصمود ، رمزا لعدم الاستسلام، ورمزا للامل . وقد كنا شهودا على النقد الذي تعرض له شعر القضية الفلسطينية المكتوب في البلدان العربية . كان النقد يقول ان اغلبية هذا الشعر تتميز برفع الشعارات المتعصبة ، ولم تعرف كيف تجد السبيل الى القلب الاوروبي والى حاسة العدل الانساني . وقد وجد هؤلاء النقاد حلا لهذه المسألة في الشعر العربي المكتوب في اسرائيل. رأوا فيه شعرا انسانيا يسمو على مشاعر الحقد والمزاج النفسي البدائي . وعبر عن ذلك بمستوى فني عال . وانا ، كشاعر عربي يحافظ على طابعه القومي العربي والانساني ، ارى في هذه الظاهرة كسبا للعقل السليم والاحساس المعافى ، وانتصارا للانسانية . لا يعني ذلك اني صرت عدميا قوميا ، ولا يعني ذلك اني اسلم بأي شكل من اشكال الغبن والظلم ، ولكن ذلك يعني انني قادر على التمييز بين الانسان والسياسة .

يجري حوار بين الادباء والنقاد في العالم العربي حول تسمية حركة الشعر العربي في اسرائيل التي يمثلها بشكل بارز : سميح القاسم ، توفيق زياد ، وسالم جبران وانا . هناك من يسميها : شعر المقاومة . وكتب احد النقاد البارزين في القاهرة غالي شكري : يمكن ان نسمي هذا الشعر شعر مقاومة ، ولكن علينا ان نذكر ان نقطة انطلاق هؤلاء الشعراء هي الاعتراف بحق اليهود والعرب في العيش في فلسطين، ولذلك من الاصح ان نطلق عليهم اسم : شعراء الاحتجاج والمعارضة .

***

لا . انا لا اعتبر نفسي شاعرا ناضجا . لا اشعر بالرضا الفني . وانا احد الذين يعتقدون بان الفنان الذي يتوصل الى الرضا عن نفسه يفقد مبررات استمراره . صحيح انني نجحت في تحسين ادواتي الفنية ونجحت في قهر تناقضاتي ، ولكنني لا اشعر بالرضا الفني .

اذا كان يشغلني في كل تجاربي الادبية ؟ قضية الحقيقة والعدل في حياتنا . انها تصبح قضية اكثر تعقيدا وتركيبا في هذا العصر المركب . ولكنني اتشبث بكل نقطة ضوء وسعادة في بحثي عن الاشياء التي تبرر قدرة الانسان على الصمود امام العذاب .

ليس من حقي القول اني سعيد . من السخف ان ادعي بانني سعيد . ولكن مطاردتي للسعادة تمنحني السعادة . هذا هو – في رأيي – مبرر وجود الشاعر منذ قام الانسان بالتعبير عن نفسه .

احاول المزج بين انتمائي القومي وانتمائي العالمي والانساني . واحاول ايضا ان اعمق حاضري بخيرة العناصر الكامنة في الماضي ، وبأجمل ما يظهر لي من المستقبل .

من الطبيعي ان تحترم شاعرا وتعجب بشاعر وتحب اخر . كلنا نقدر شيكسبير علىسبيل المثال . وكلنا نعجب بحكمت ونيرودا واودن. ولكن رغم اعجابي البالغ بالكثيرين من الشعراء ، الا انني احب لوركا.. نعم ، انا احب لوركا حبا . لا اعتبر لوركا شاعرا مبدعا فحسب ،ولكنني اعتبره ايضا صديقي .

***

● الكثيرون من اصدقائي يتألمون من اجلي . هذه الملاحقات .. الاعتقالات واوامر الاقامة الجبرية التي تحدد حرية تجولي في وطني ، اصبحت جزءا من حياتي اليومية . ولكنني انظر اليها باستهتار يكاد يكون خبيثا . لست متوترا ولست مندهشا . اجلس في غرفتي ، كل مساء ويطربني ان ارتبط بالشمس ، لاني امنع من مغادرة البيت بعد غروب الشمس . منحوني شرفا كبيرا عندما ربطوا خطواتي بالشمس. اجلس في الغرفة ، أقرأ ، اسمع موسيقى ، وانتظر البوليس . وفي الساعة الرابعة بعد كل يوم اثبت وجودي في محطة الشرطة بابتسامة حقيقية غير لئيمة دائما . وانا انظر الى ذلك برؤية شعرية : لقد تقاسمنا اليوم : لهم الليل ، والنهار لي . لا يحق لي الخروج في الليل، وهم دائمو التجوال في الليل . وكل واحد منا يعرف ان النهار اجمل من الليل ، وضوء الشمس احلى من الظلام . فمن انتصر .. انا ام البوليس ؟

***

● لا انام قبل الاستماع الى الحان ميكيس ثيودوراكيس . بيني وبينه حكاية : قبل ثلاثة اسابيعقرأت في الصحف الاسرائيلية ان ميكيس قد اعتقل . كتبت قصيدة من وحي هذا الاعتقال ، عنوانها « ريتا .. احبيني ».كتبت في مقدمة القصيدة انسبب اعتقال ميكيسثيودوراكيس هو انه « خطر على امن الجمهور » . اضحكني ان الصحف الاسرائيلية وضعت هذه الجملة ضمن اقواس تعبيرا عن سخريتها من هذا الادعاء : « خطر على أمن الجمهور » . ضحكت ، لان هذه الصحف تنظر الى هذا الادعاء كأمر بعيد عنها وبعيد عن حدود اسرائيل ! اني استمع الى الحان ميكيس كل مساء واحس اننا صديقان . انا ايضا « خطر على امن الجمهور » . ولكنني لم اتصور ان مصيري ، ذلك الاسبوع سيكون كمصيره . فعندما نشرت القصيدة في « الاتحاد » كنت انا في الاعتقال لانني « خطر على امن الجمهور » !

محمود أحمد السيد
رائد القصة الحديثة في العراق

تاليف
الدكتور علي جواد الطاهر

اول دراسة مسهبة عن رائد القصة العراقية الحديثة الذي أثار اهتمام المستشرقين والباحثين بما انتجه من روايات وقصص مهدت الطريق لجميع كتاب القصة الحديثة في العراق

صدر حديثا عن دار الآداب ، بيروت